المحاضرة الثالثة : نظرية التعبير ملاحظة : هذه محاضرات أعدها الدكتور صلاح ياسين

أولا) مفهومها:

هي نظرية برزت في أواخر القرن الثامن عشر تقريبا، وترى بأن الأدب ليس مجرد محاكاة للواقع وإنما هو تعبير عن الذات، وهذه الذات هي مكان الهواجز والمشاعر والعواطف ومختلف الانفعالات، وبالتالي تكون نظرية التعبير قد نقلت مركز الاهتمام من الواقع الخارجي إلى ذات الأديب الداخلية.

ثانيا) ظروف وأسباب نشأتها:

لم تنبثق نظرية التعبير من فراغ وإنما تشكلت نتيجة لعدة ظروف فلسفية وسياسية وفكرية وحضارية واجتماعية وغيرها، ويمكننا شرح هذه الظروف والأسباب في المستويات الآتية:

1) المستوى الفلسفي:

استندت نظرية التعبير إلى الفلسفة المثالية* التي ترتكز على العقل/ الذات/ الوجدان/ الداخل، ويُعْتَبَرُ الفيلسوفان الألمانيان **إيمانويل كانت Immanuel Kant (1724* 1804) وفريدريك هيجل Friedrich Hegel (1770* 1831)** هما المنظران لنظرية التعبير؛ حيث يرى كانت أن **"الشعور طريق المعرفة الحقيقية"**[1] ويرى هيجل أن **"الفن إدراك خاص للحقيقة بواسطة الخيال"**[2]، كما يرى هيجل أن **"الفن شكل خاص يتجلى فيه الروح"**[3].

2) المستوى السياسي:

كان يحكم المجتمع الغربي قبل ظهور نظرية التعبير نظام إقطاعي، يقسم المجتمع إلى ثلاث طبقات؛ طبقة الأمراء ورجال الدين والطبقة البرجوازية والطبقة العاملة، وكان الطبقة الأولى هي المتحكمة في زمام الأمور؛ بحيث يمكنها اقتطاع الأراضي وامتلاك القصور والحصول على الأموال وفرض الضرائب على الطبقتين البرجوازية والكادحة.

أما الطبقة البرجوازية فقد كانت تمتلك وسائل الإنتاج ورؤوس الأموال، وقد سخروا ذلك لبناء الاقتصاد من خلال الإنتاج والتجارة.

في الأخير نجد الطبقة الكادحة التي كانت مسخرة للعمل فقط، وكانت ترزح في الفقر والبؤس نتيجة لهذا الاستغلال.

وقد ظلَّ هذا الوضع سائدا إلى أواخر القرن الثامن عشر؛ حيث تحالفت الطبقة البرجوازية مع طبقة العمال المقهورة ضد طبقة النبلاء ونظام الحكم الثيوقراطي (Theocracy)*؛ اندلعت الثورة البرجوازية على الإقطاع وثار الشعب على رجال

---

*الفلسفة المثالية هي فلسفة ترى أن المعرفة الحقيقية تأتي من خلال العقل/ الذات/ الروح بدل الواقع الخارجي الحسي، بل إنها لا ترى قيمة للمحسوسات من دون الشعور بها في ذواتنا.

[1] شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 52.

[2] المرجع نفسه، ص 53.

[3] فريدريك هيجل، المدخل إلى علم الجمال فكرة الجمال، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط3، 1988، ص 16.

* هي الحكومة الدينية التي سادت في القرون الوسطى في أوروبا، فهي النظام السياسي الذي يستند على التفويض الإلهي الخارج عن إرادة البشر حيث يتولى السلطة رجال الدين أو تُتبع السلطة

الدين المسيحي الذين سَخَّرُوا الدين لخدمة مصالحهم ومصالح الأمراء السياسيين الفاسدين على حساب الشعب الرازح تحت سطوة نظام الإقطاع الذي أنهكه اقتصاديا وطمسه فكريا واستباحه سياسيا، ووسط هذه الظروف قامت الثورة الفرنسية عام 1789م[4] مستندة إلى شعار **"اشنقوا آخر الملوك بأمعاء آخر القساوسة"**[5] كما برزت "حركة في الفكر الكاثوليكي تسعى إلى تأويل تعاليم الكنيسة على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين"[6].

3) المستوى الاجتماعي والحضاري:

أسهمت الثورة الصناعية في انتعاش الاقتصاد، وشهد المجتمع انتقال الناس من الريف إلى المدن وأصبحت المدن تكتظ بالمجتمعات البشرية مما ولَّد علاقات اجتماعية كثيفة ومعقدة ومستقرة، وتطورت الدراسات الاجتماعية التي تدعو إلى الفردية والحرية والإخاء والمساواة والتقدم من خلال علمنة المعرفة وتفسير بنية المجتمع تفسيرا علميا بعيدا عن الأوهام والطلاسم التقليدية، وانتشرت الشعارات التي تدعو للديمقراطية الليبرالية ولنشر روح التسامح والمذهبية الإنسانية والمساواة العرقية والاجتماعية[7]؛ فعلى الصعيد الاقتصادي رفع الفيلسوف والاقتصادي شعار **"دعه يعمل اتركه يمر"**[8] وعلى الصعيد الأدبي رفع أنصار نظرية التعبير شعارا موازيا هو **"دعه يعبر عن ذاته"**[9]، وهي دعوة لحرية التعبير بلا تصنع ولا تكلف ولا رقابة طبقية.

4) المستوى المعرفي:

إن السبب الخفي لحركة التطور التي حدثت في القرن الثامن عشر هو التطور المعرفي ونمو الوعي الثقافي للأفراد الذين أحسوا بضرورة التغيير نحو الأفضل وبذلك قاموا بالثورة ضد الاستبداد وأبدعوا في الصناعة وخطُّوا طريق الحداثة في جميع المجالات، ويعود الفضل في تنوير الشعوب وعولمة المعرفة إلى الثورة الكتابية التي بدأها **يوهان غوتنبرغ Johannes Gutenberg (1398 م - 1468 م)** حينما اخترع الطباعة التي "أحدثت في وقتها انقلابا خطيرا في وظيفة الكتاب ودوره [...] لم يعد الكتاب مع النشر ميزة الخاصة من العلماء أو مستودع الأسرار بل أصبح بفضل الاستنساخ الآلي يُطبع ويوزع على نطاق واسع لكي ينتشر بين جمهور الناس.هنا ننتقل من سر الكلمة إلى إشاعة المعرفة، وهذا الزمن الذي هو زمن المصنع [...] هو زمن المجال الكتابي [...] وفيه أتاحت الطباعة كوسيط إعلامي نشر المعارف وانتشار

الدنيوية السلطة الروحية. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: معجم مصطلحات عصر العولمة، (د.ت)، (د.ط)، ص 170.

[4] لويس عوض: الثورة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1992، ص 3.

[5] إبراهيم محمد جواد: "الحداثة في الفكر والأدب، النبأ، ع5، 1988، ص 190.

[6] منير البعلبكي: المورد الحديث، مادة mode، ص 735.

[7] ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص (224، 225).

[8] شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص 50.

[9] المرجع نفسه، ص 50.

الصحف وظهور الموسوعات، بقدر ما أسهمت في خلق الشروط لتأسيس الجمهوريات وولادة الديمقراطيات الحديثة. ولذا فالتحول الرئيسي هنا يتم من الكتاب المقدس إلى العلمانية وسردياتها العقلانية، بمعنى أن الانتقال يجري من الرعية التي تتلقى وتسمع أو تُؤْمَر وتطيع إلى المواطن الذي يقرأ الكتاب أو الصحيفة، فيطلع على المجريات فيحلل ويناقش لاتخاذ الموقف الذي تمليه عليه قناعاته [...] إنه زمن التنوير حيث الفرد يمارس استقلاليته الفكرية بالتحرر من سلطة اللاهوت، عبر النقد العقلاني والانخراط في النقاش العمومي"[10].

ثالثا) أعلام نظرية التعبير:

1) ويليام ووردزوورث William Wordsworth:

يعتبر ويليام ووردزوورث من أبرز أعلام نظرية التعبير، حيث دعا إلى أن تتكون لغة الأدب معبرة عن الأديب وما يختلج في وجدانه من مشاعر وأحاسيس وعواطف وأخيلة، وبهذا يكون ووردزوورث قد نقل مركز الاهتمام من الواقع الخارجي إلى الذات الداخلية، يقول في ذلك **"إن كل شعر جيد هو فيض تلقائي لمشاعر قوية"[11]**، وهذا يعني أن على الشاعر أن يستسلم لخواطر قلبه وخلجات مشاعره استسلاما تاما، ثم يُخرج تلك المشاعر كما هي من دون تكلف أو صنعة.

كما دعا ووردزوورث إلى التعبير بلغة بسيطة سهلة وإلغاء الحدود بين اللغة الإبداعية الراقية واللغة العامية، بل وإذابة الفواصل بين الشعر والنثر، لأن العفوية في الكتابة أصدق في التعبير وأبلغ في التأثير[12].

ولم ينس ووردزوورث الإشارة إلى الاهتمام بالطبيعة فهي أفضل معبر عن الشاعر، ولأنها ببعدها عن عالم الصناعة والفوضى، بفطريتها، بعفويتها، تجذب الشاعر إليها وتنعكس روحه فيها فيرى فيها أحزانه وآماله، سعادته وشقاءه، وغير ذلك من الانفعالات والأحاسيس.

ويمكننا أن تلخيص أراء ووردزوورث حول الأدب في النقاط الآتية:

1) وظيفة الشعر هي الكشف عن القوانين الأولية للطبيعة الإنسانية.
2) هدف الشعر هو الإمتاع.
3) الشاعر لا يختلف عن غيره من الناس العاديين إلا في درجة ما لديه من إحساس وقوة انفعال ومن قدرة على التعبير.

---

[10] علي حرب، حديث النهايات، (فتوحات العولمة ومآزق الهوية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص 136.

[11] كولريدج، النظرية الرومانتيكية في الشعر، (سيرة أدبية لكولريدج)، ترجمة عبد الحكيم حسان، دار المعارف، مصر، 1971، دار المعارف، مصر، 1971، ص 434.

[12] يُنظر: المرجع نفسه، ص 440 وما بعدها.

4) الشعر تعبير عن انفعال، ولهذا فإن اللغة التي تناسبه هي اللغة الطبيعية التي توجد على ألسنة الطبقة الدنيا التي لم تفسدها الحضارة وبخاصة عند الريفيين في حديثهم العادي، ويعني ذلك أن لا خلاف بين لغة الشعر ولغة النثر[13].

2) تيلور كولريدج Tailore Koleredj:

يعتبر كولريدج من ألمع منظري الأدب الذين فاقت شهرتهم حدود عصرهم ليستمر تأثيره إلى اليوم بفضل اكتشافه لأبرز ملكة إبداعية وهي مفهوم الخيال الذي يعتبره من أجل الملكات الإنسانية؛ فالخيال هو طاقة يستطيع من خلالها الإنسان أن يتحرر من رتابة الاشياء ومن انغلاق العالم من حولنا من خلال الكشف عن علاقات جديدة بين الموجودات، بل والقدرة على صنع عالم جديد يوازي العالم الذي نعيشه ويتفوق عليه.

ويميز كولريدج بين نوعين من الخيال؛ أما أحدهما فهو الخيال الأولي الذي يوجد عند جميع البشر، وهذا الخيال يساعد الإنسان في عملية الإدراك كما أنه مرتبط بالذاكرة؛ فعندما نتوقع حدوث نتيجة لتجربة قبل إجرائها أو عندما نستحضر ذكرياتنا القديمة فإننا نستخدم هذا النوع الأولي من الخيال.

أما الآخر فيطلق عليه كولريدج الخيال الثانوي، وإذا كان الخيال الأولي موجود عند عامة الناس فإن الثانوي يقتصر فقط على الأدباء والشعراء والفنانين؛ إنه يذيب ويلاشي ويبعثر ويشتت ويفكك موجودات الواقع الخارجي لكي يبدع لنا شيئا جديدا غير موجود على الإطلاق في الواقع الخارجي لكن ذواتنا تتفهمه وتستأنس به وتشعر بِوِحْدَتِهِ وانسجامه.

وهناك فرق بين الخيال والوهم؛ فالوهم هو الجمع بين عناصر منفصلة في العالم الخارجي جمعا عبثيا تعسفيا بحيث لا يوجد بين أجزاء الوهم رابط يوحدها ويجمعها، ومن أمثلة الوهم قولنا مثلا:

تنثال الذكريات راكضة في السُّخَامْ (الدخان)

وتستيقظ على شفا صهوة يلفها فجر بليدْ

وأجد نفسي ثكلى بين العبراتْ

فهذه المقطوعة تشبه الخيال الثانوي بسردها لمجموعة من العبارات المتباعدة (ذكريات، سخام، صهوة، فجر، ثكلى، عبرات) غير أنه لا يوجد رابط يوحد بين تلك الجزئيات المتباعدة، ولذلك فهي ضرب من الوهم.

أما الخيال الثانوي فهو يجمع أيضا جزئيات متباعدة في الواقع، لكنه يوحدها ويربطها بخيط يجعلها في غاية الانسجام، ومن أمثلته قول الشاعر محمود درويش يصف بيروت:

تُفَّاحَةُ للبحرِ، نَرْجَسةُ الرُّخَامْ،

---

[13] كولريدج، النظرية الرومانتيكية في الشعر (سيرة أدبية لكولريدج)، ص: ح.

فَرَاشَةٌ غَجَرِيَّةٌ، بَيْرُوتُ. شكلُ الرُّوحِ في المرآة
وَصْفُ الرحلة الأُولَى، ورائحةُ الغَمَامْ
بيروتُ مِنْ تَعَبٍ وَمِنْ ذَهَبٍ، وأندلسٍ وشَامْ
فِضَّةٌ. زَبَدٌ. وَصَايَا الأَرْضِ في رِيشِ الحَمَامْ
وَفَاةُ سُنْبُلَةٍ. تَشرُّدُ نجمةٍ بيني وبَيْنَ حَبِيبتِي بَيروت
لم أَسمعْ دَمِي مِنْ قَبْلُ يَنْطِقُ باسمِ عَاشقةٍ تَنَامُ عَلَى دَمِي...وَتَنَامْ...[14]

ففي هذه الأسطر الشعرية عناصر لا يمكنها أبدا التواجد بجانب بعضها في الواقع (تفاحة البحر، نرجسة الرخام، فراشة غجرية، شكل الروح في المرآة، رائحة الغمام..)، غير أن الصورة الكلية لهذه الجزئيات تبدو في غاية الانسجام والتوحد والتآلف، لأن هناك خيطا يجمعها ويوحدها، وهو خيط نفسي شعوري وجداني يتعلق بالشاعر الذي تتجمع الصور المتباعدة في وجدانه فيوحدها ثم يخرجها إلى العلن في صورة لغوية متكاملة.

حوصلة الأمر أن نظرية التعبير انتقلت بالنظرية الأدبية من العقل إلى العاطفة، من الصنعة إلى الفطرة، من قيود السلطة الاقطاعية إلى الحرية الفردية، من الواقع الخارجي برتابته وجموده إلى متاهات الذات بِحَرَكِيَّتِهَا المتجددة وخيالها الجامح.

---

[14] محمود دروش، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ـ العراق ـ ط2، 2000، ديوان حصار لمدائح البحر قصيدة بيروت (بتصرف)، ص 428.